



هل كان السبب في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته هو الفرار من الظلم والفتنة؟ سؤال يستدعي وعيًّا قبل الإجابة عليه؛ لأنَّ هاهنا منطقة غامضة وخطيرة، فمن حيث المبدأ: لا إنكار على من هاجر من بلد إلى آخر فراراً بيته من الفتنة أو بنفسه وعرضه من الظلم والطغيان؛ فالعيش الآمن والحياة السالمة من البطش والإرهاب حقٌّ من حقوق الأدميين؛ لذلك جاءت الآية الكريمة من سورة النساء على نحو يؤكد أنَّ الأرض ميدان لتنقل الإنسان تتسع له ولا تضيق عليه: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا كُنْتُمْ فِيهِ مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا أُهْمِمُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء 97)، كما جاءت الآية من سورة التوبة على نحو يجعل من حق المستجير السالم من التورط في المحاربة أن يبلغ من الأرض مأمنه: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (التوبه 6)؛ ومن ثم فلا تثريب على من كان هدفه من الهجرة البحث عن مأمن؛ إذ لا مؤاخذة على من يمارس حقَّه الشرعي، لكن التثريب والتأنيب والعتاب والمؤاخذة يكون على تفريط سنائي للحديث عنه بعد جولة قصيرة.

لا ريب أنَّ الفرار بالدين من الفتنة والفرار بالنفس والعرض من الظلم، والتماس موطن آمن للعباد ليعبدوا فيه ربهم آمنين على أنفسهم من عدو يضيق عليهم أو يمنعهم؛ لا ريب أنَّ كل هذه الأهداف والغايات كانت مستحبة في كل هجرة قام بها الصحابة مع رسول الله أو بدونه، بل إنَّها كانت كذلك في كل هجرة هاجرها نبيٌّ أو أتباع نبيٍّ، ومن أظهر الأمثلة على ذلك هجرة إبراهيم عليه السلام والحنفاء.

لكن الذي لا ريب فيه أيضاً هو أنَّ هذه الغايات كانت تالية للغاية الأُمّ وتابعة لها، وأنَّ الغاية الأُمّ من الهجرة هي التمكين لدين الله عزَّ وجلَّ؛ بالدعوة والبيان ثم بالدولة والسنن، تلك هي الغاية الحقيقة والمحورية، وقد كان كل واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قادرًا على الاعتصام بسيفه والالتزام بأرضه ووطنه، كان كل واحد منهم يحمل من النخوة والألفة ما يحمله على أن يجرد سيفه فلا يضعه حتى يقضى الله بينه وبين من رام إخراجه من بلده، فلم يدفعهم إلى الهجرة

إلى الحبشه أولا ثم إلى يثرب ثانيا ضعف عن المقاومة، ولا زهد في الوطن والدار، وإنما كانوا أصحاب قضية كبيرة ورسالة عظيمة؛ هي التي دفعتهم لأن يتجلسوا عناء الهجرة وألام مفارقة الأوطان.

ومما يؤكـد هذا المعنى أنـ الذين هاجروا إلى الحبـشـة لم يكونـوا جـمـيـعاً من الـضعـفـاءـ المـغـلـوـبـينـ، وإنـما كانـ فيـهمـ أـشـرـافـ نـبلـاءـ منـ لهمـ فيـ بـلاـدـهـ مـنـزـلـةـ وـجـاهـ وـلـهـ بـقـوـمـهـ مـنـعـةـ وـعـزـةـ، منـ أـمـثالـ عـثـمـانـ اـبـنـ عـفـانـ وـجـعـفـرـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ وـأـمـ حـبـبـةـ رـمـلـةـ بـنـتـ أـبـيـ سـفـيـانـ، وـغـيـرـهـ مـمـنـ لـاـ يـجـرـؤـ أـحـدـ عـلـىـ أـنـ يـمـدـ لـهـ يـداـ أـوـ يـنـالـهـ بـأـذـىـ؛ وـمـنـ الـأـدـلـةـ عـلـىـ ذـلـكـ أـيـضـاـ إـنـ الـهـجـرـةـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ كـانـتـ وـاجـبـةـ، إـلـىـ حـدـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ يـقـيـلـ مـنـ أـحـدـ لـمـ يـهـاـجـرـ وـهـوـ قـادـرـ عـلـىـ الـهـجـرـةـ عـهـدـ وـلـاـ مـيـثـاقـ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَائِتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا) (الأفال 72).

إنـ الـهـجـرـةـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ التـيـ يـنـالـ بـهـ أـجـرـ وـفـضـلـ الـهـجـرـةـ، هيـ التـيـ تـكـونـ أـدـاءـ لـوـاجـبـ لاـ مجـرـدـ مـارـسـةـ لـحـقـ، هيـ التـيـ تـكـونـ لـلـتـمـكـينـ لـدـيـنـ اللهـ وـلـيـسـ لـلـتـنـزـهـ وـالـتوـسـعـ فـيـ الـحـيـاـةـ، هـذـهـ هيـ الـهـجـرـةـ التـيـ تـكـونـ مـرـاغـمـاـ وـسـعـةـ وـيـقـعـ أـجـرـ الـمـهـاـجـرـ فـيـهـ عـلـىـ اللهـ: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فـيـ سـبـيلـ اللهـ يـجـدـ فـيـ الـأـرـضـ مـرـاغـمـاـ كـثـيرـاـ وـسـعـةـ وـمـنـ يـخـرـجـ مـنـ بـيـتـهـ مـهـاـجـرـاـ إـلـىـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ ثـمـ يـدـرـكـهـ الـمـوـتـ فـقـدـ وـقـعـ أـجـرـهـ عـلـىـ اللهـ وـكـانـ اللهـ غـفـورـاـ رـحـيمـاـ) (النسـاءـ 100)، فـهـلـ يـكـونـ مـفـرـطـاـ مـنـ خـرـجـ مـنـ بـلـدـهـ مـهـاـجـرـاـ بـسـبـبـ الـظـلـمـ الـوـاقـعـ عـلـيـهـ، حتـىـ وـلـوـ كـانـ سـبـبـ الـظـلـمـ أـنـهـ مـتـمـسـكـ بـدـيـنـهـ مـلـتـزـمـ بـتـعـالـيـمـهـ غـيـرـ مـوـالـ لـأـعـدـاءـ دـيـنـهـ؛ وـهـذـاـ سـؤـالـ يـدـخـلـنـاـ إـلـىـ الـجـوـهـرـ.

إنـ الـمـسـلـمـ الـمـهـاـجـرـ بـسـبـبـ ماـ يـقـعـ عـلـيـهـ مـنـ ظـلـمـ مـأـجـورـ، وـإـنـ لـمـ يـنـوـ بـهـجـرـتـهـ إـلـاـ النـجـاـهـ بـنـفـسـهـ وـالـفـرـارـ بـحـرـيـتـهـ؛ مـأـجـورـ إـذـاـ اـحـتـسـبـ، مـأـجـورـ عـلـىـ الـمـصـابـ الـذـيـ حلـ بـهـ، لـكـنـهـ لـاـ يـنـالـ أـجـرـ الـمـهـاـجـرـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ وـلـاـ فـضـيـلـةـ الـهـجـرـةـ حتـىـ يـجـدـ نـيـتـهـ، وـحتـىـ يـتـبـنـيـ مـنـ الـمـوـاـفـقـ وـالـأـقـوـالـ وـالـأـفـعـالـ مـاـ يـعـلـيـ مـنـ شـأنـ الدـيـنـ وـيـصـبـ فـيـ النـفـعـ الـعـامـ لـلـمـسـلـمـيـنـ، فـإـنـ اللهـ تـعـالـىـ رـؤـوفـ رـحـيمـ وـدـودـ كـرـيمـ، لـاـ يـحـرـمـ عـبـدـ اـسـتـفـزـهـ سـوـطـ الـطـغـيـانـ فـغـرـ بـنـفـسـهـ، فـلـمـ اـسـتـقـرـ بـهـ الـمـقـامـ اـسـتـدـعـيـ قـضـيـتـهـ وـاسـتـحـضـرـ نـيـتـهـ وـبـدـأـ يـتـحـركـ وـيـعـمـلـ.

فـمـوسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ عـنـدـمـاـ خـرـجـ كـانـتـ غـايـتـهـ النـجـاـهـ مـنـ الـظـالـمـيـنـ: (فَخَرَجَ مـنـهـ خـائـفـاـ يـتـرـقـبـ قـالـ رـبـ نـجـنـيـ مـنـ الـقـوـمـ الـظـالـمـيـنـ) (الـقصـصـ 21) فـلـمـ تـحـقـقـتـ نـجـاتـهـ تـحـرـكـتـ حـاجـتـهـ لـلـهـدـاـيـةـ فـيـ تـيـهـ الصـحـراءـ الـمـوـحـشـةـ: (وَلـمـاـ تـوـجـهـ تـلـقـاءـ مـدـيـنـ قـالـ عـسـىـ رـبـيـ أـنـ يـهـدـيـنـيـ سـوـاءـ السـبـيلـ) (الـقصـصـ 22) فـلـمـ بـلـغـ الـمـأـمـنـ تـحـرـكـتـ حـاجـتـهـ لـلـرـزـقـ فـيـ غـربـتـهـ: (فـسـقـىـ لـهـمـاـ ثـمـ تـوـلـىـ إـلـىـ الـظـلـلـ فـقـالـ رـبـ إـنـيـ لـمـ أـنـزـلـتـ إـلـيـ مـنـ خـيـرـ فـقـيـرـ) (الـقصـصـ 24) فـأـفـاضـ اللـهـ عـلـيـهـ مـنـ النـعـمـ حتـىـ صـارـ لـهـ بـيـتـ وـزـوـجـةـ وـأـنـعـامـ، لـكـنـهـ لـمـ يـنـسـ قـضـيـتـهـ، فـمـاـ إـنـ قـضـىـ الـأـجـلـ الـذـيـ عـلـيـهـ حتـىـ تـحـرـكـتـ فـيـ نـفـسـهـ الرـغـبـةـ فـيـ الرـجـوـعـ إـلـىـ مـصـرـ؛ حـيـثـ قـوـمـهـ مـنـ بـنـيـ إـسـائـلـ يـعـانـونـ الـخـسـفـ وـالـهـوـانـ، فـأـمـتـطـيـ نـاصـيـةـ الـطـرـيقـ النـافـذـ عـبـرـ سـيـنـاءـ؛ قـاصـداـ مـصـرـ، وـهـنـاـ اـسـتـحـقـ شـرـفـ الـرـسـالـةـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ حـيـثـ يـجـعـلـ رـسـالـتـهـ، فـجـاءـهـ الـوـحـيـ فـيـ الـوـادـيـ الـمـقـدـسـ طـوـيـ.

فـمـنـ سـعـدـ بـهـذـهـ النـعـمـةـ وـهـذـاـ الـخـيـرـ ظـهـرـتـ عـلـيـهـ عـلـامـاتـ لـاـ يـمـلـكـ إـخـفـاءـهـ، وـمـنـ اـعـتـالـتـهـ شـهـوـاتـ نـفـسـهـ وـغـلـبـتـ عـلـيـهـ هـمـومـ دـنـيـاهـ طـفـحـتـ عـلـىـ ظـاهـرـهـ خـصـالـ لـاـ يـمـلـكـ إـخـفـاءـهـ أـيـضاـ، فـأـسـأـلـ نـفـسـكـ أـيـهاـ الـمـهـاـجـرـ: هلـ أـنـتـ تـفـكـرـ فـيـ قـضـاـيـاـ أـمـتـكـ وـبـلـدـكـ أـمـ يـسـتـحـوذـ عـلـىـ تـفـكـيرـكـ هـمـ الـعـيـشـ وـالـسـكـنـ وـالـاسـتـيـطـانـ وـغـيـرـ ذـلـكـ؟ هلـ أـنـتـ تـدـعـوـ لـنـفـسـكـ وـأـهـلـكـ فـقـطـ أـمـ تـجـعـلـ لـدـيـنـكـ وـأـمـتـكـ وـالـمـظـلـومـيـنـ فـيـ بـلـدـكـ نـصـيـباـ مـنـ دـعـائـكـ؟ هلـ أـنـتـ نـزـاعـ لـلـوـحـدـةـ وـالـأـلـفـةـ وـالـتـوـاـصـلـ أـمـ لـلـشـقـاقـ وـالـخـلـافـ وـالـتـهـارـشـ؟ هلـ لـدـيـكـ خـطـةـ وـمـشـرـوعـ وـرـؤـيـةـ أـمـ إـنـكـ تـمـضـيـ عـلـىـ هـوـىـ مـنـ يـسـيـرـونـكـ؟ هلـ تـعـمـلـ مـاـ تـسـتـطـيـعـهـ أـمـ إـنـكـ مـسـتـسـلـمـ لـلـيـأـسـ تـلـقـيـ الـلـوـمـ عـلـىـ غـيرـكـ.

إـنـ وـجـودـ جـمـاعـاتـ مـنـ النـاسـ مـخـلـفـةـ فـيـ مـهـجـرـ كـرـيمـ بـتـرـكـياـ الـحـبـبـةـ فـرـصـةـ عـظـيـمـةـ لـلـتـوـاـصـلـ، وـلـلـانـدـمـاجـ فـيـ

الشعب التركي الكريم، فهل نحن قادرون على تحويل هجرتنا من مجرد ممارسة حق إلى أداء واجب؛ لتحول هذه الفرصة التاريخية على منصة انطلاق إلى ميلاد جديد للأمة الإسلامية؟

إنَّ الهجرة أعظم حدث في تاريخ الإسلام بعد نزول القرآن، وإنَّ الأمة الإسلامية لفي أمس الحاجة إلى استلهام الدروس من هذه الهجرة المباركة، وإنَّها لدروس كثيرة وفييرة، وإنَّها لفي القمة في النفع؛ وإننا لقادرون إن شئنا أن نجدد انطلاقتنا مع العام الهجري الجديد؛ فاللهم خذ بنواصينا إليك أخذ الكرام عليك، واستعملنا ولا تستبدلنا.

المصادر: